رب دهشة نافعة! (*)

عاشق أنا حتى النخاع، مقبل ومن عشرات السنين على كتابات الأستاذ يحيى حقى، أقرأه بنهمٍ وتأمل، ومع مَرِّ السنين، أضفت إلى فروع هذه الشجرة الوارفة التى أفىء إليها وضمت: العقاد، وطه حسين، وهيكل، ولطفى السيد، والحكيم، وسلامة موسى، ثم لويس عوض ـ أضفت شجرة أصيلة وارفة العطاء على مدى قرابة قرن من الزمان: الدكتور شوقى ضيف، حدوته مصرية، أرجو أن أعود إليها يوما.. وحتى لا أطيل عليك، فتح يحيى حقى وشوقى ضيف شهيتى للعودة إلى الجبرتى وتاريخه، هذا المؤرخ العظيم الذى تعلمنا من الصبا احترامه وحبه، والعرفان المتزايد مع الأيام لما حفظه من تاريخ مصر استكمالاً لحبات عقد عظيم فيه تلألأت تواريخ وتصانيف المقريزى صاحب الخطط والسلوك، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة، وابن إياس صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور، هؤلاء الذين منهم تسلم الجبرتى الراية، ليواصل العطاء وحفظ تاريخ مصر فى صبر وأناة وأمانة ودقة بالغة، قبل أن يسلمها بدوره إلى عبد الرحمن الرافعى الذى لم يمنعه انتماؤه إلى الحزب الوطنى القديم وخوضه بحور ولجج السياسة، من أن يبذل قصارى جهده لحفظ وتأريخ فترة من أخطر فترات النضال المصرى فى العصر الحديث !!

---

* ٢٠٠٦/٢/١٨

أعود إلى الجبرتى الذى إليه ذهبت مشتاقاً بتأثير يحيى حقى الذى التقطت عدسته اللامة بعض طرائف "الدهشة" أو "الصدمة " التى تولدت من جراء ما أتت به الحملة الفرنسية من عجائب العلم والتحضر.. لم تحل كراهة المصريين للتجريدة البونابرتية - دون توقف الجبرتى عندها وتقطيرها لاستخلاص رحيقها وعبرتها. "الصدمة" أو "الدهشة" التى توقف عندها يحيى حقى فى كتابات الجبرتى متأملاً يستخرج مكنونها، يقابلها "المزحة" و "الطرفة" و "الدعابة" التى استخرجها شوقى ضيف من الجبرتى أيضا ليكشف لنا من جانب آخر العبقرية الكامنة فى الشعب المصرى الذى فى اقتدار وذكاء فطرى، وتسامح رحب أيضا، يصنع النكتة والدعابة من مآسيه!.. يكاد يصبّر بها نفسه على بلواه!.. يتفنن فى صناعة الطرفة حتى ليستغرقه هزلها والسخرية (المُرة!) فيها استغراقاً لعله يسرى أو يخفف عنه قتامة التعاسة المحيطة به من كل جانب!!.. تضحك حتى النخاع، ضحكا كالبكاء، وأنت تتابع ما أورده شوقى ضيف عما بثه يوسف الشربينى عن العصر العثمانى بكتابه الطريف: "هز القحوف بشرح قصيدة أبى شادوف "!

يممت شطر الجبرتى لأراجع بنفسى ماكتبه عن "الصدمة" التى أحدثها بالمصريين ما أتت به الحملة الفرنسية من عجائب.. ربما انحصرت "الصدمة" و "الانبهار" فى البداية فى النقليد الأعمى للتوانه المظهرية، بيد أنه تلاها يقظة وفرز واقتباس وفهم.. وهذه هى قيمة "الصدمة" بما تحدثه من دهشة.. القدرة على الدهشة علامة صحة، وفقدانها أمارة خبو وبلادة!

دعونا نرى كيف دهش الجبرتى، وماذا روى تعبيرا من دهشته.. فى المجلد الرابع من تاريخه: "عجائب الآثار ".. فى أحداث جمادى الآخرة ١٢١٣ هـ (ديسمبر ١٧٩٨م)، لايكاد الجبرتى يفرغ من تصوير "صدمة " الحملة ذاتها التى تداركتها "ألطاف الله الخفية

"!، حتى ينقل من أحداث الخامس والعشرين من ذلك الشهر كيف أن رجال الحملة، فى تمهيدهم لما أرادوا، أتوا بعجائب تهون الصعب وتقرب البعيد.. يروى الجبرتى: "كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل، وقلة الكلفة، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممدودتان من خلف، يملؤها الفاعل (العامل) ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض على يديها المذكورتين، ويدفعها أمامه بسهولة على عجلتها (بدل حمل الغلقان) إلى محل العمل، فيميلها بإحدى يديه، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة!!.. يروى الجبرتى كيف انتقل من حيث يعمل الفعلة بهذه البساطة واليسر، إلى بيت حسن كاشف جركس الذى أنفق عليه الأموال الباهظة، ثم فر أمام الحملة مع الفارين، فأحالوا بيته إلى مكتبة عامة، زودوها بالكتب، ورصوا فيها الخزن، "ونصبوا كراسى موازية لتختاه عريضة مستطيلة، يجلس إليها من يريد التصفح ومراجعة ما شاء، لا يمنعون حتى راغب الفرجة من الدخول ".. "ويتلقونه بالبشاشة وإظهار السرور بمجيئه، خصوصا إذا رأوا فيه تطلعا للنظر فى المعارف "! وفى جانب آخر من البيت" أفردوا مكانا لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة "... ومن المكتبة وبيت الحكمة ينقلنا الجبرتى إلى "توت الفلكى "وتلامذته فى مكانهم المختص بهم حيث: "الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة، وآلات الارتفاع البديعة التركيب، المصنوعة من الصفر المموه، وتركب ببراريم مصنوعة محكمة، كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة بها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير "!!..

"وكذلك نظارات للكواكب وأرصادها، ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها.. والساعات التى تسير بثوانى الدقائق "!..

هذه "الصدمة "، وأيا ما اختلفت الآراء فى أثر الحملة الفرنسية، ولدت لدى المصريين "دهشة" هائلة تستطيع أن تلمس آثارها فى الحياة المصرية بعامة، وفى التعليم والثقافة والجيش، وفى الحياة السياسية أيضا.. قبل هذه الصدمة محركة الدهشة، كان لتراجع فى العصر العثمانى هائلا، واستغلال الشعب غاشما.. المرافق العامة فى حالة إهمال يرثى لها، وحقوق المصريين مضيعة، وأغلب لمدارس قد تحولت إلى خرائب، وانحصرت الثقافة بين جدران الأزهر الذى كان بدوره مكبلا بموروثات ابتعدت بدراساته عن كل واقع الحياة، وانعكس ذلك كله على الثقافة والأدب والفنون!..

على ما كشفته الحملة الفرنسية من هبوطٍ وخذلانٍ، ولجوءٍ إلى "ألطاف اللّه الخفية "، فإن صدمة ما أتت به حركت سواكن.. كشفت تحدياتها للمصريين ما فى واقعهم من سوء وهبوط وتعاسة، ونبهتهم إلى ضرورة التغيير.. حتى إجراءات محاكمة سليمان الحلبى على ما فيها من مرارة، أدهشت الجبرتى واستوقفته طويلا، مثلما أدهشته وأدهشت المصريين مشاهد كثيرة لم يكن لهم بها عهد، فكان ذلك وما تلاه من اتصال مستمر بأوربا، عاملا فى تكوين الأفكار السياسية والاجتماعية بالمعنى الحديث فى مصر وفى العالم العربى بعامة.. نضح ذلك فى التجارب المختلفة لبناء هيكل الدولة ونظامها السياسى والإدارى والقانونى، وفيما استجد من تطورات اقتصادية انتهت بتصفية الإقطاع التركى المملوكى، فضلاً عن الثورة الصناعية التى بعثها محمد على بما أقامه من مدارس متخصصة وما أرسله من بعثات إلى أوربا.. وتزامن مع هذه التطورات زخم ثقافى وحضارى انعكس على الأدب والصحافة، وعلى التيارات الأدبية والفنية بعامة، وعلى تطور أشكال التعبير الأدبى بخاصة، فى

القصة القصيرة والمسرح والرواية.. كان طلبة الطب يصطدمون بموروثات تحرم تشريح الجثث ثم لم تسمح إلاّ بتشريح جثث الكلاب، وكان فى الأزهر من يقاوم ظهور الوقائع المصرية بحجة أنه يرد فيها اسم الجلالة والنبى والقرآن بينما هى عرضة للإلقاء على الأرض، فقادت "دهشة" "الصدمة" إلى الانفتاح على ما أنشىء من مدارس عسكرية وعلمية كالهندسة والطب، ثم العناية بالترجمة التى انتقلت من المحاولات الفردية المعتمدة فى الأساس على الشوام، إلى حركة شاملة نهض عليها خريجو مدرسة الألسن التى كان يشرف عليها رفاعة الطهطاوى، فضلا عن مطبعة بولاق التى أنشأها محمد على وإليها تعزى آلاف المصنفات التى طبعت فى شتى العلوم والآداب.

ليس مقصودى ولا يتسع المقام، لدراسة الحياة المصرية فى العصر الحديث، وإنما مرادى فقط أن أستقصى ظاهرة و أثر "الدهشة" فى تغيير الحياة.. هذه الدهشة التى تولدت لدى الإنسان الأول حينما تصادف انبعاث شرارة من تصادم حجرين، فقاده ذلك إلى اكتشاف النار.. و "الدهشة" التى هدت إسحق نيوتن إلى قانون الجاذبية، أو تلك التى هدت إلى قانون الطفو.. "الدهشة" نعمة حقيقية يُرد إليها ما يتجمع لدى الإنسان من دوافع وشحنة ومحركات هى التى تخرجه من وهدة الخبو والخمول والاستكانة والبلادة والتسليم، وتحرك أشواقه ومعها معارفه وقدراته العقلية والذهنية، ليخلق بهذا كله واقعا جديداً أفضل وأميز وأرقى وأكثر سعة وإشراقاً.. لا بأس على الآدمى طالما بقيت لديه يقظة يستطيع بها أن يحس ويرى بنظره وببصيرته، وأن ينفعل انفعالاً محموداً واعياً بما يتجمع بعدسته اللامة من "دهشة" هى التى يرجع إليها كل "جديد" "أفضل" يقيمه الأفراد والجماعات والشعوب والأمم!! أذكر هذا وأذكر معه تساؤلاً ملحاً لا يفارقنى فى صحوى ولا فى منامى: لماذا فقدنا قدرتنا على الدهشة ؟!!